

إلى ساطع النجاة

« قاتل الله العبيبة المعباه حيث كانت ، ولعن الله
 المتفاجر الكاذب أينما وقع ، هذه يونان مثلا قد
 غررها شعرها ونفثها وفلسفتها فاستكبرت عن قبولها
 الهدى يأتيها من الشرق والجنوب على ابدى الرسل
 والأنبياء ، فما نفى الشعر عن يونان شيئا ولا الفن
 ولا الفلسفة ، ولا حقوا بذلك سمادة ، بل غاصوا
 في بحار الشهوات فكانوا من اللغزين ، ومثل اليونان
 الرومان ، أنفوا ان يقبلوا الهدى من الفقراء فكانوا
 من الأشقياء ، وكذلك شأن كل تكبر جبار يتعالى
 عن قبول الصباح الهادي لأنه في يده نـزـير او
 قريب الموت »

ولقد اختار الله رجاله الصغراء الأتقياء لينقذوا
 العالم من الهاوية ، فمن استجاب لهم نجا ، ومن نمرد
 عليهم ملك أو ذل : ولا يزال الزورق ممددا لمن
 أراد النجاة »

الشرعياصي

الى شاطيء النجاة

من القمصن الهندية ان اميرا من اهل البيوتات والشرف ورد نهراً ليغتسل
فماشرف على الهلاك فبصر به رجل من اراذل الناس فأسرع اليه واخذه الى شاطيء
النجاة فلما اتفق الامير وتماسك سأل عن اسم منجده وحاله ، فاذا هو رجل وضع
النسب فاستشاط غضبا وعد صنعة جريمة حيث دنس جسده الطاهر بيده وامر به
فمذب ذلك المسكين الكريم واوسع صفعا وضربا وصار نكالا للناس جميعا .

لم تنته القصة بعد بل اتفق الأمير مرة ثانية ان دخل النهر ووقع له نفس
الحادث وحاول النجاة فلم يفلح اما المذهب الاول فكان منه على كذب وكان
ميسورا له انجاء الامير ولكنه لم يجترأ ان يكرر جريمته الاولى بعد ما عوقب
شديدا حتى عبثت الأمواج بذلك الأمير السامي الكريم ولم تحتفل بكرامته ونسبه
وذمب الرجل ضحية كبريائه وسفاهته .

هذه أسطورة لعننا سبقت الى مسامعك فاستغربت وقوع مثلها في العالم وصدورها
من رجل رزق شيئا من العقل ولكن الفكر الانساني له أطوار وعجائب وقد
روى لنا التاريخ شيئا كثيرا من هذه المضحكات المبكيات ، فطالما اغرقت العصبية
الجنسية والخيلاء النسبية الافا من البيوتات ومئات من الجماعات وفقدت رشدها
في سبيل هذه العصبية والكبر حتى آثرت الهلاك على النجاة وفنضت الضلالة على
الهدى واختارت الغي على الرشد وأبت أن تتبع رجلا لا ذنب له إلا أنه ولد في
جنس آخر أو وطن آخر أو في بيت فقير أو شعب حثير واستكففت من أن تتخذ
بقائدا ومرشدا .

ونقرأ لهذه القصة الطريفة نظائر وأمثلة كثيرة في تاريخ الأديان والأخلاق ،
والعالم الحديث وإن كان ذا عقلية واسعة وفكر عالمي لا يزال يتحفنا بحكايات
وتوادد لا تقل من أسطورة الأمير طرافة وغرابة ، فتصه الأمير المتكبر الغريق
التي تراها من القمص الخرافية المختلفة إنما هي حكاية صادقة عن بعض عجائب
الانسان وتمثيل صحيح لناحية من نواحي الطبيعة البشرية وكان الأمير بطل هذه
القصة ، ولكنها ليست قصه الأمير وحده بل هي قصة تاريخية لآلاف من الناس
العقلاء ومئات من الشعوب الراقية ليس فيها شيء من الكذب والوضع .

هل أذاك حديث نونان ؟ أرض الشعراء والأدباء وأرض الفلاسفة والحكماء
ومن يجهل أفلاطون وأرسطوطاليس وبقراط وسقراط ؟ أرض قد يظن الرجل
أنها لم تنجب غير الشعراء والفلاسفة والأطباء ولم يكن فيها إلا شاعر أو أديب ،
أمة موهوبة وأرض مخصبة كانت فيها الحكمة والفلسفة وكانت فيها الأقليدس
والهندسة ، وكان فيها الشعر والأدب والتصوير والنحت وسائر الفنون الجميلة أرض
كانت مادة لا تنقطع لكل ما أبدعه الذوق الانساني وأوجدته القرائح البشرية ،
فكان اليونان اساتذة العالم ولا تزال البلاد والأمة تزهر بتقليدهم حتى اليوم .

كان هذا وذاك ، ولكن هناك أمور لا تحيط بها العقول البشرية ولا يتناولها
العلم الانساني ولا ينفع فيه الذكاء وحدة الذهن وهي مأسر هذه الدنيا وكيف أوجدت
ومن أبدعها وما ذا أراد بخلقها ثم ما مصيرها وغايتها وما هي الشريعة المرضية
للحياة لدى خالقها . هل من حياة بعد هذه الحياة وإن كان لا بد من الحياة الآخرة
فما هي واجبات الانسان نحوها وكيف يتزود لها ويعد لها عدتها وما هو الطيب والخبيث
والحلال والحرام ؟ هذه أسئلة يعجز الانسان عن حلها الصحيح بالخرص والظن
غلا القياس بجديده نفعاً ولا الظن يغني عن الحق شيئاً .

حاول اليونان كمعادتهم ان يبرروا بهذه الاسئلة مرور الشعراء والأدباء وكان
بجان لشعر في هذا الوادي ضيقاً غير فسيح وما كان الشاعر يوماً من الأيام فارس
هذا الميدان وصاحب الكلمة في هذا الموضوع ، حتى عثر اليونان في كل خطوة
خطوها ، نسبوا إلى الله عز وجل أموراً يستنكف منها الحر الكريم ، واختلفوا
بطوماراً وهمياً في نسب العقول والأفلاك اختلافاً مضحكاً وربطوا به العالم
وأفروغوا أساطير الاصنام الخرافية (MYTHOLOGY) في قالب الفلسفة
وكسروا قصص الاصنام والآلهات المرصوعة لباساً دينياً عليها حتى قتلت هذه
الخرافات من اليونان روحهم الدينية وبقيت اليونان ميتة بين الأموات جوفاء
لا روح فيها ولا حياة ، أقفرت القلوب من خشية الله والافتدة من حبه وأثرت
للفنن الغرامية الموضوعه للالهة والآلهات وأخبار معاشقتها ومغازلتها
وعلاقتها السرية في الآداب اليونانية والمجتمع اليوناني تأثيراً سيئاً فأنارت
الشهوات الجانسية وأفسدت الحياة المنزلية ، حتى لم يبق هناك ميزاناً لا خير والشر

وقامت الفلسفة تحامى عن كل إثم وتحتج لكل شروهنض أقطاب الفلسفة والحكمة
يبررون البقاء ويدافعون عن المؤسسات وحرفتن إلى أن أصيبت هذه الامة
الذكية بانحطاط خلقى هائل وفوضى فى الاجتماع المعاشرة وانحلال خلقى واجتماعى
لابقاء لامة عليه ، وسال هذا السيل الجارف لكل علم وأدب وذهب بكل
خيرات اليونان وحاصلاتها الممتازة بين البلدان .

وكانت وراء الشرق الجنوبي من اليونان بلاد وأمم كانت دون اليونان عقلا
وعلما فما كان فيها حكماء مثل سقراط وافلاطون ولا شعراء مثل هوميروس
وعسقليوس ولا رجال الهندسة والرياضة مثل اقليدس وفيثاغورت ولم تكن لها
يد طولى فى الفنون الجميلة إلا ان الله سبحانه اختار فيها رجالا بالرسالة والنبوة
واوحى اليهم دينه وافاض عليهم علوم ذاته وصفاته ومنحهم فى سر هذه الحياة
ومصير هذا العالم علما محكما لا يتطرق اليه الشك ووهبهم دعائم دينية يقوم عليها
بناء الاخلاق والاجتماع والمدنية الصالحة فى كل عصر .

لقد كان اليونان يملكون ثروة عظيمة من الكلمات الحكيمة والمصطلحات العلمية
والبحوث الفلسفية ولكن الانبياء كانوا يعرفون حقائق الاشياء وجوهرها
ولبها وكان فى يد اليونان الغاز معقدة عن الكون والاجتماع والاخلاق كلما
حاولوا حلها ازدادت تعقدا وإلتواء ، اما اوائك فكان فى ايديهم المباركة طرف
كل حبل ومفتاح كل قفل .

كان فلاسفة اليونان يتلاعبون بأصداف من بحر الحقيقة المائج ويعبثون
بالخزف والحصاة اما هؤلاء فقد حاضوا ذلك البحر العظيم ونزلوا فى اعماقه
فأخرجوا درره النفيسة الغالية وكان الاغريق يعلمون كل شئ ويجهلون انفسهم
وقد درنوا تاريخ العالم بأسره فما من بقعة من بقاع الارض إلا احاط بها اليونان
علما وخبرا واسكنهم لم يظلموا على مدبر العالم الوحيد وقد افلسوا فى الروح
والاخلاق افلاسا شائنا ، عجزت علومهم وفلسفة الاخلاق ان تنفخ فى رجل
واحد روح الطهارة وخشية الله واشرب الناس فى قلوبهم حب الشهوات وتهاقنوا
على اللذات ورنعوا فى المحرمات واطلقوا عنانهم فى المحشاء والمنصكر .

أما الأنبياء فدخل من اتصل بهم أو هبت عليه نفحة من نفحاتهم خرج من
سر الهوى وتحرر من رق الشهوات وخذت فيه جذوة الائم وتولدت فيه
الدواعى القوية . للتقوى والطهارة وبلغ من معرفة الله ومحبه ومن اليقين درجة
لم يبلغها حكماء اليونان وفلاسفتهم .

أما فلاسفة اليونان فقد عجزوا من أن يربوا تلاميذهم النجباء على الزهد
والتقوى وممة وممة النفس والهوى وذلك بعدما علومهم قسطا وافرا من العلوم
والآداب ، وخرجوهم في فنون الفلسفة والاخلاق أما الرسل (صلوات الله عليهم
وسلامه) فكانوا يرفعون الأنفس الوضيعة من حضير الحيوانية إلى أوج
الانسانية بغير واسطة الكتب وأدوات التعليم ثم يعدونهم لمغالبة الشيطان والنفس
الأمارة بالسوء فكانوا ازهد في الدنيا واحرص على البر واخوف لله وأملك
من كبار الحكماء والفلاسفة ، اعنى الناس علما وأبرهم قلوبا وأفهم تكلفا .

بلغت دعوة هؤلاء الرسل إلى اليونان وقرعت الآذان فما كان منهم إلا أن
أنفضوا رؤسهم في سخرية واستهزاء وأجابوا أنى احتقار وازدراء لا بعد هذه العلوم
الواسعة والمكتبة الزاخرة والاكتشافات المدهشة في كل علم وفن نفتدى بأميين
لا يحسنون الكتابة والقراءة ولا يعرفون مبادئ العلوم ؟ هذا والعالم كله متطفل
على مائدة علومنا وفلسفتنا ويطلب لادبنا وشعرنا ويتفاخر بتقليدنا وأى علم
نجهله حتى نحتاج إلى أن نراجع فيه غيرنا ، فكان عاقبة هذه الكبرياء أنهم استغنوا
عن هداية الرسل وضيعوا فرصة الانتفاع بعلومهم التي لا توجد عند غيرهم ولا
تصلح الحياة إلا بها واصبحت علومهم التي كانت مجردة عن هداية الرسل ومعرفة

الله تعالى منبع الفساد والعلة في جسم حياتهم تنفث السم وتفسد الدم وتعميمهم
عن الحقائق وتغسلهم بالفضول حتى أصبحوا فريسة الادواء الخلقية والشرور
الاجتماعية والتنافر الجنسي والاضطراب المنزلى وأصبحوا حديثا في التاريخ وقصة
من القصص الماضية وكانوا كما وصف الله تعالى في القرآن ، فلما جاءتهم رسلهم
بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ،

وقد تمثلت هذه الرواية في رومة بعينها رومة التي ورثت عن اليونان نتاج علومها وسياستها إلى أن فاقت صاحبتيها في النظام السياسي والتشريع وفق الحرب وقد قبضت رومة في برائتها الحديدية على ناصية القارات الثلاث أوربا وآسيا وأفريقيا واستولت عليها كآسرة واحدة وأجادت في إدارة المملكتين وكثرة الفتح والمستعمرات ولباقة التشريع وحماية الفنون الجميلة كالنقش والنحت وفق البناء والعمارة فقد فاقت رومة في كل ذلك على أخواتها وبرزت ولكنها بقيت جاهلة أسر الحياة ولم تتمكن من أن تستقي من معين الحقيقة الصافي وكانت تدين بعبادة الأصنام والأجرام وقد فقدت المعايير الصحيحة وخسرت قيم الأخلاق وموازينها الصحيحة وظلت بعيدة عن الهداية السكاملة المعصومة فكان عاقبة ذلك أنها أصيبت بأمراض خلقية روحانية عسيرة ، كتبذير الأموال والغلو في الترف والبلذخ والجشع المادي والتهافت على الأموال واللذات وازدياد الضرائب والاتاوات فماد كل ذلك وبالا على رومة وعذابا ألما وفسدت الأذواق ومسخت الأذهان حتى بلغ أهل رومة في القسوة وحسب للتفرج والاستهانة بالنفس البشرية مبلغ السباع والمجانين حتى كثرت التفرج على المبارزة بالسيف (GLADIATOR) بين القرنين وكان يزدهم أهل رومة للتفرج عليه وكان أحب المناظر إحتقار القتل وأنين الجرحى وكانت ولائم الأمراء وحفلات الأغنياء تضاء باحراق العبيد أحياء (١) هذا ولم تر في رومة حكما ينتقد هذه العادات الممجة وعالم يذم هذه القسوة والسبعية .

وفي ذلك العصر عصر الانحطاط والتدهور في الأخلاق والمعاشره بعث في الأمم الشرقية غير واحد من الرسل (صلوات الله عليهم وسلامه) فوصلت أخبارهم ودعوتهم إلى رومة ولكن أنفت رومة رومة - وهي سيدة العالم - من أن تصنى إلى رجال ولدوا في أمم منحلة وبلاد غير راقية واستهان أهلها بدعوتهم وكيف تقبل رومة إلى رجال لاسيادة لهم ولا سلطان وهي صاحبة الأمر والنهي في

ببلادهم ، فكانها قالت بلسان الحال : اتؤمن لبشرين مثلنا وقومهما الناعابدون ، ولم تزل حجة المنكرين من الاغنياء والمترفين من قديم الزمان ، لو كان خيرا ما سبقونا اليه ، ما قدرت رومة نعمة النبوة حق فسدرها فأغرقتها العصية القومية وكبرياء الملوكية وأخذتها موجة طاغية من الفساد والانحلال والفوضى وبحيت من الوجود . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد .

كانت رومة وإيران والصين والهند في القرن السادس المسيحي من البلاد المتقدمة في العالم ولكن كل غصن من أغصان الديانات أصبح ذائبا لا يثمر ولا يورق وكل مشعل اشعته النبوة في زمانها فقد نفذ زيتته وانقطعت مادته ، أفلست الأمم والاديان في اليقين ومعرفة الله الصحيحة وكان التخمين والحرص بضاعة المتدينين ومطية العلم والدين وكانت هوى الأنفس روح السياسة والاجتماع وكان الدين والملوكية كفرسي رهان ورضيعة لبان في الخدعة والمكر تخلف الصوامع والبيع والكسائس من القيادة الرشيدة وتنازلات منذ أمد بعيد من إرشاد الناس ولنظرة عجي في الهندووية والبوذية والمجوسية والمسيحية يدل على ان هذه الديانات قد فقدت نضارتها واضطفت مصابيحا فلا تسكاد تضيء ولو مستها نار فلا توقظ الروح ولا تنعش الضمير ولا تبعث ختية الله والشعور بالواجب ، تحمل الأحكام الواضحة والأوامر البينة التي فصلت من لدن حكيم خبير .

أنهكت الدولة الفارسية والرومية الفلاحين والصناع والتجار بالضرائب المتنوعة والاتاوات المبتدعة المستحدثة التي أصبحت لهم الشغل الشاغل والهم الوحيد في الحياة حتى دهموا عن إلتباس حقيقة سامية أو السعي للآخرة وكان مثلهم كمثل الثيران نهارها تعب وليلها نوم وحياتها شقاء للذير وحظها عاف وماء وذلك أيضا لتقوى على الخدمة وتقضى حاجة أصحابها .

أما الهند فقد بلغ فيها التفاوت بين الطبقات والانساب والحرف مبالغ التفاوت بين البشر والخيروالبقر ، بل نزل المنبوذون فيها منزل الكلاب والخنازير ولطخت الشهوة الجنسية والروايات الغرامية المعابد والذخائر الأدبية والدينية وتغلغلت عبادة القوة والمال في احشاء الأمة وبقي الدين رسما

بالإسما واسما لبعض الطقوس الدينية والتقاليد الاجتماعية أو مجموعا لمصطلحات الفلسفة والبحوث الفارغة .

وبالجملة أن الاسم المتعددة قد أصبح فريسة المدنية المسبوخة والأدواء الخلقية والاجتماعية الفانكة . حتى صارت لا تجد لحل الرسالة المقدسة والجهاد في سبيلها وإغاثة الإنسانية المهلولة إذ كانت أكبر وكر من أوكار الفساد وأعظم علة من علل شقاء الإنسانية .

نظرت الحكمة الإلهية إلى عرب أهل الأرض وعجمهم ففتهم واصطفت لنشأة العالم الثانية الأمة العربية ولم تكن دون الاسم الوثنية الأخرى في عبادة الأصنام وإحطاط الأخلاق غير أنها لم تلحقها عدوى المدنية المصطنعة والحضارة المزورة والردائل التي تأتي بها الحكومات وتحملها العبودية السياسية والروحية ثم اجنبي بها فرداً كان نسيجاً وحده في طيب فنصره وزكاه فطرته وعلو همته وقوة جأشه وصديق عزيزته ، وعفاف نفسه وعروته عن الشهوات وكان أية في لشجاعة والذات بحيث لو عارضه الجن والبشر وعاداه البر والبحر لما ضعف ولا استكان ولو وضعت على يمينه الشمس وعلى يساره القمر لما تخير ولا تخير لو راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه لعصى وأنى . ولو عرضت عليه الرئاسة والملك وكنوز الأرض وفاتح الخزائن لرفضها من غير تأن ، فلم يكن أحد أجدر منه لحل الرسالة ولا أقوى عليها منه في مثل هذه الساعة العصيبة وفي أشد يوم من أيام الحرج ولم يكن في النوع الإنساني فرد يوزن بالعالم كله فيرجع عليه ويتألب عليه جنود الشيطان وفروى الشرف ينتصر عليها ، ويشق طريقه في عقبات وأشراك حتى يصل إلى نجاح لم يتبأ لاحد قبله ولا بعده ، فيبدأ المهمة وهو وحيد لا صاحب له وينتقل إلى ربه وقد غير مجرى التاريخ وخلف وراءه أمة فاضلة عادلة قوية متناصفة كانها حلقة مفرغة لا يبرى أبى طرفاها وذلك كله في ثلاثة وعشرين سنة .

وكانت العقيلة الإنسانية قد نضجت وأدركت فاستحقت الرسالة العامة والنبوة الإنسانية كلها وقد بلغ النوع الإنساني سن الرشد فاستحق الرسالة الأخيرة والنبوة التي لا نبوة بعدها ففتح الله محمداً ﷺ ديناً نبينا محمداً مفصلاً كاملاً يسع جميع

شعوب العالم وجميع طبقاتها وكل أفرادها وجميع شؤون حياتهم يغذى العقل وبنيهم الفكر ويوقظ الروح ويربي المواهب الفطرية وكان حياة كاملة محيطة بكل ما يحتاج إليه الإنسان من العقائد والالهيات إلى ما يتجدد من شؤون المجتمع والمدنية في زمان أو مكان ، محكما لا عوج فيه عروة وثقى لا انقسام لها . فلا يقبل النسخ والتبديل ولا يحتاج معه إنسان إلى اشتراع أو ابتداع

وكان هذا الدين نروة يشترك فيها بني آدم وكانت قسمة كل شعب وفرد قسمة غير ضيرى ومجالا فسيحا لطيران كل فرد وعروجه على السواء فلم يكن فيه سلطان اسرة خاصة ونسل معين (كلكم من آدم وآدم من تراب ، لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتوى) يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن اكرمكم عند الله أتقاكم .

فترى في العصر الاول سلمات من إيران وصيبيا من الروم وبلالا من الحبش وكثيرا من بني جلدتهم يصاهمون قريشا وأشراف بني هاشم في كل فضل وخير ويفضلون كثيرا منهم بالدين والعلم ونسمع عمر خليفة المسلمين يلقب بلال بالسيد ، ثم ترى في حواضر المملكة الإسلامية ومراكزها الكبرى غير واحد من حديثي الاسلام والعجم يسودون المسلمين الذين ورثوا الدين عن آباءهم والسادة العرب وترى الملوك والاسراء والأشراف يخضعون لفتاويهم وأقضيتهم وكان رئيس المسلمين الديني وكبيرهم في كل مدينة كبيرة أيام عبد الملك رجلا من لموالي إلا الكوفة وكان ينادى في موسم الحج الذي يقصده المسلمون من كل فج عميق — في مثل مكة المركز العربي الكبير — ألا لا يفت إلا إعطاء بن أبي رباح وكان مولى .

مكث الفرس والرومان مدة من الزمان ينظرون إلى الاسلام كعدو بغيض وإلى المسلمين كغضبسين وأصابتهم دهشة الفتح وسرعان ما تبدلت أفكارهم ونظرتهم وفتحوا للإسلام أبواب صدورهم المقفلة وعقولهم المعطلة فأصابوا من مائدته البسيطة الممتدة على كل ناحية من نواحي الأرض فغضبوا في حسنات الاسلام بسهم وافروفاقوا كثيرا من العرب في العلوم الدينية والفضائل الإسلامية فكان فيهم مثل أبي حنيفة ومحمد

ابن اسماعيل البخارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى وأبى داؤد السجستانى وأبى
هيسى الترمذى الى امام الحرمين الجوينى وحجة الاسلام الغزالى الطوسى وكثير
من النوابغ والعقريين المسلمين الذين يتحدرون من اصول عجمية وملوك مجاهدين
صالحين كنور الدين الزنجى وصلاح الدين الكردى وملك شاه السلجوقى وشمس
الدين ألتمش سلطان الهند وناصر الدين محمد دغيات الدين بلبن ومحمد شاه الكجراتى
ومظفر الحليم ومحمود كاوان الدكنى واورنك زيب التيمورى الذين لا يزالون موضع
الاعجاب من المؤرخين وظهر فى التاريخ الاسلامى أسر حديثة العهد بالاسلام تحكم
المسلمين كسلاجقة نيسابور وزنج الشام واكراد مصر وآل عثمان فى تركيا واسرة
الملوك فى الهند وماليك مصر وهكذا جمع الاسلام للعجم بين السيادة العلمية
والروحية والسيادة السياسية وذلك اقصى ما وصلت اليه امة فى دين جديد .

وقد حلت رحمة الاسلام ببلاد أوروبا عن طريق الأندلس وتألق الاسلام
نجمها فى سماءها ثمانية قرون ولم يكن عرب الأندلس مثلاً كاملاً فى روح وتمثيل الاسلام
والاخلاق الاسلامية ولا شك انهم لم يكونوا كما صاحب النبى ﷺ فى الاخلاص
والحماسة للدعوة الاسلامية والتأثير فى اخلاق الامم وعقولها ولكنهم كانوا على
علاقتهم - افضل جداً من الاوربيين فى الدين والاخلاق والعلم والعقل ، عندهم كتاب
منزل ودين محكم وشريعة مدونة ، ومنحت أوروبا فرصة طويلة للتدبر فى ذلك الدين
والنظر فى كتابه المبين وفهم شريعته السمحاء .

ولكن أوروبا لم تهتبل هذه الفرصة السعيدة ولم تنتفع بها فاهلكتها العصبية الصليبية
والكبر الاقليمى الذى لا يزال شعارها حتى اليوم ، وهذا ما ورثته عن اليونان
المتكبرة وروما المغترة فسلم تزل تنظر الى مسلمى الأندلس نظراً شراً نظراً
العداوة والبغضاء والحسد والشحناء وقد استفادت من مهارتهم فى الطب ونبوغهم
فى الفلسفة كما اضطرت الى ذلك ولكنها لم تنتفع بملاك امرهم ورأس ما لهم
وجوهرتهم الغالية وهى (الاسلام) حتى فى القرن الخامس عشر المسيحى حين
جنونها فاجلت مسلمى الأندلس من ارضها الى افريقيا وتمادت فى جهلها وطفانها
الى ان طمست آثارهم الدينية والثقافية التى كانت ذخيرة ثمينة لأوروبا ايضا واجلت
الاسلام من تلك البلاد فأجلت بجلاثة رحمة سماوية اظلتهم ثمانية قرون .

فكان عاقبة هذا ان نهضة اوربا العلمية والعقلية (Renaissance) تأخرت
لعدة قرون وجاءت نهضة خرقاء هو جاء اذ كانت على غير هدى وعلى غير اساس
دينى خلقى فوقعت اوربا وغيرها من ايام العالم في هوة اللادينية وعبودية المادة اذ لم يكن
في اوربا بعد جلاء المسلمين منها من يرشد هم الى الدين الصحيح والأخلاق الفاضلة
التي هي اساس المدنية والمجتمع ولم يكن فيها بعد المسلمين من يساعد هم في الجمع بين
الدين والعقل وسعادة الدنيا والآخرة اما الديانة التي تدعو اليها الكنيسة النصرانية
فكانت اوها ما وعصبية ومجموع تاويلات الاحبار والرهبان وتفسيراتهم الغامضة
المعقدة والأقوال المتضاربة المضطربة والجغرافية المسيحية المقدسة والتاريخ المقدس
الذي لا يؤيده العلم ولا يوافق عليه العقل وكل ذلك ما يبغض اليها الدين ورجاله
أما الأمور التي هي دعامة العلم الصحيح والعمل النافع كعرفة الخالق وصفاته والوحى
والنبوة الحياة الآخرة فلا قبل لأوربا بمعرفتها ولا سبيل لها الى الوصول اليها فكانت
لذلك عاجزة عن تعيين غاية الحياة وموقف الإنسان من هذه الحياة والكون
ومركزة في العالم .

فكانت النتيجة الاولى ان اوربا ركبت عمياء في سفرها وخبطت خبط
عشواء في حياتها شغلها البحث في الآفاق وعلم الكائنات عن خالق الارض
والسموات فلم يصل من الخالق الخالق ومن الكثرة الوحدة وتكدست عندها
المعلومات والاكتشافات ولم تستطع أن تسلكها في سلك ولم توفق ان تنفخ فيها
روح الحياة وتهتدى الى مركزها وتستعملها في صالح الانسانية وسعادتها .

والنتيجة الثانية انها لما حرمت الدين وروحته حرمت الضمير الحى والقلب
الحساس والشعور الرقيق وتهذيب النفس والتغلب على الشهوات فلم تزل في رقى
وعلو في العلوم وتظفر بفتح بعد فتح في الدائرة الطبيعية ولكنها لم تزل في انحطاط
وسقوط في الروح والأخلاق حتى انتهت في سفرها الى منزل جمعت هناك بين
ذكاء الحكماء والفلاسفة ومقدرة الجن والعفاريت أما الأخلاق والأعمال
فتنازلت الى طباع الاطفال وميول الشياطين ، امتلكت للقوى والوسائل التي
سخرت لها الهواء والماء والعرق والبخار والحرارة والقوة ولكنها ظلت محرومة
عن المقاصد الصحيحة وميول الخير التي لا تحصل إلا بفضل الدين الصحيح والتربية

الخلقية فاصبحت هذه الوسائل إما ضائعة في مقاصد حثيرة لا تنفع الإنسان شيئا أو مضرّة تستعمل في دمار الإنسان وتخريب الحضارة نفسها وقد تسلط شيطان الأثرة على أوربا بأسرها فأهم تفنك بالأمم وطبقات تغزو الطبقات وأفراد ينحرون الأفراد ولم تقف عند هذا الحد بل وصلت في الأخير إلى التهمة الذرية التي تأتي على الحرث والنسل وتجعل البلاد الواسعة قاعا صفصفا .

اضاعت أوربا مواهبها وثمرات عقولها وعلومها باعراضها عن هداية الدين فعادت كلها وبالا عليها وعلى العالم ، لاشك أنها تملك مادة واسعة من العلوم وتفصيلها التي قد لا تحتاج إليها ولكنها تجهل الأصول والمبادئ للحياة الإنسانية وأعرضت عن العمل بها ولا ريب أنها حلت الغازأ عديدة معقدة شديدة التعقد ولكنها عجزت عن حل اللغز الأكبر لغز حياتها فكانت كما قال الدكتور محمد أقبال في بعض قصائده يشير إلى بعض غرائب الغرب .

« من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح وإن من بحث عن مسالك النجوم وطسرقها لم يستطع أن يسافر في يدهاء أفكاده ومن عكف على الألفاظ يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر . ولا سبيل لأوربا الآن إلا أن تشجع وتعترف بأنها افلست افلاساً شائناً في الأخلاق والروح وفشلت في الحياة فشلاً تاماً وتستغيث الدين الإسلامي والهداية الحميدة ، الهداية التي تمنحها غاية الحياة الصحيحة وتنفع فيها روح الحياة وترشدنا إلى خالق الكون ومديره وتمنحنا في ذلك علماً واضحاً غير ملتبس فنجمع لها بين الحب والخوف وطالما فرق بينهما فلم يكن الأول إلا على حساب الثاني وتبعث فيها الإيمان بحياة بعد هذه الحياة . إيماناً يحول بينها وبين الجنايات والخيانات الفردية والاجتماعية والخلقية والسياسية ويطلق على عاتقها مسؤولية تجعل منها أمة أمينة تخاف الله في السر والعلن وتتقى الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

ثم لا بد هنا من سيرة إنسان كامل يستطيع أن يكون إماماً وقادة في كل شأن من شؤون البشر وفي كل عصر من العصور وأن يكون مثلاً كاملاً في العبادة والتقوى والأخلاق والسلوك والسياسة والاجتماع وفي السلم والحرب والرضا والغضب والضعف والقوة وفي الحياة المنزلية والزوجية والفردية والاجتماعية ويصلح أن يكون المثل كالأخ ووالد وزوج وصديق وقاض وأمير وغنى وفقير

وتاجر وحاكم وقائد جيش وعاهل أمة ذلك هو محمد ﷺ الذي لا يزال المثل الوحيد للبشرية في أطوارها ومختلف أدوارها ثم لا بد لتلك السيرة أن تكون محفوظة بتفاصيلها وان تكون وثيقة تاريخية لا يشك فيها .

ثم تتبع ذلك وتعضده تراجم رجال آهتدوا بتلك السيرة واحتذوا بها في عصر زاه متمدن في أكبر مراكز الحياة والمدينة مع حمل أعباء الحكومة واحتمال تكاليفها ولم تزل قدمهم عن صراط الأخلاق والمبادئ . ولم تفتنهم فتنة المال والقوة ولم تمل بهم صهبااء الحكومة والسيادة عن حياة الزهد واتضاعه أولئك أصحاب محمد ﷺ ومن تبعهم باحسان .

هذا مع شرائع عادلة للمجتمع الانساني وآداب حكيمة للأخلاق وأحكام واضحة للسياسة وحدود فاصلة للحياة لو حافظت عليها أوربا كانت بنجوة عن رهبانية المديحية ومادية العصر الحاضر وغلو البراهمة وتطرف الفرس وتكشف الرواقين وغلظة الرومان وخلاعة اليونان ، هنالك تحل الانسانية والفكرة الافاقية محل القومية الوطنية ، والاثار مكان الاثر ، والاقتصاد بدل الاسراف ، والقناعة بدل الشره والنفامة ، والهدوء والسلام بدل القلق والاضطراب والتعااض والتعاون . ان هذا المعين الصافي للحياة على كسب من أوربا في تناول بدنها ولكن الاستقاء منه يحتاج الى شجاعة كبيرة وذلك ماتحجم عنه أوربا وتروغ عنه ساداتها وكبرائها ، انهم يستطيعون ان يدمروا الشعوب والبلاد ويحولوا العالم كله الى خراب ويشاهدوا الامم تخوض الغمرات وتعاني السكرات وتقلها الجراحات ويشاهدوا حضارتهم تنتحر وتخجرها وينهار صرحها ويتداعى قصرها ولكنهم لا يستطيعون - لكبرهم وعنادهم - أن يعترفوا بأنهم فشلوا في مهمتهم وان حضارتهم قد افلست وان سياستهم قد خابت واخفقت وان علومهم قد اضررت بهم وان عقولهم قد خدعتهم انهم لا يزالون يحكمون الخونة الجائرين ويخضعون للزعماء الجاهلين والحكماء الفاسقين ويرجعون في التهاوى الى المتطبيين المشعوذين ولكنهم يأبون أن يرجعوا الى أمي ﷺ وما ذلك الا لانهم رفعوا الستار عن أسرار الكون وسخروا البرق والبخار وملأوا الدنيا كتباً في كل علم وفن فكيف يسوغ لهم أن يراجعوا من لا يعرف صناعة الكتابة ولا يعلم فن القراءة ، أن مثل الكبر والأنانية دفعت أجيالا من البشر الى الهاوية وذلك دام أوربا العضال .

أما الاقطار الشرقية التي تقطن إثر أوربا في كل شيء فهي أسوأ حالا من أوربا لأن هذه الاقطار الشرقية قد أفلتت قديما في دياتها وروحها وفقدت بقايا الوحي والنبوة ولم تصل إلى ما وصلت اليه أوربا من العلم والعقل والوعي السياسي والشعور بالواجب والاخلاص في القومية أو الوطنية والمحافظة على النظام غلبت عندها قوة روحية ولا شريعة سماوية وكذلك ليس عندها ما تمتاز به أوربا من العلم والمدنية والثروة السياسية والاخلاق الاجتماعية فإذا عاشت أوربا بفضل نظامها وإتقان شئونها مدة من الزمن لم تستطع هذه الاقطار أن تسليخ عقودا من السنين فأنالها الاستقلال إلا وظهرت الفوضى في السياسة والاجتماع والانحلال والفساد في الاخلاق وفشت الحيوانات وعمت الرشوة ونفقت السوق السوداء وضح الناس من جور الحكام وحيثهم وخيانة الوزراء وإسرافهم في أموال الامة وبطالة العمال وجنایاتهم واحتكار التجار ومغاللاتهم في الاثمان وعيل صبر الناس وسئموا الحياة وتمنوا الموت والهجرة من الاوطان .

ان دواء هذه العلل التي أصيبت بها هذه البلاد هو مخافة الله عز وجل والایمان بالبعث بعد الموت ولكن هذه المخافة لن تصدر من فلسفة مهما كانت قديمة مرت عليها العصور ولا من شعر مهما كان أعلق بالنفوس ولا من تاريخ مهما كان مؤثرا رائعا . ان مصدر هذه النفسية ومنبع هذا اليقين هو الدين الذي جاء به الانبياء في عصورهم وجاء به محمد ﷺ للأبد ولا تزال أبوابه مفتوحة لكل طارق .

يحتوى تاريخ كل بلاد على تعاليم عالية وحكم سامية وأمثال فائقة للبروء والكرم وروايات شائقة للايثار والنضحية والوفاء والسماحة والامانة والشجاعة ولا بأس أن تذكر هذه المآثر في الحفلات التاريخية والجامع العلمية ولا بأس بأن يغتبط بها الانسان في بلاد وبروبها ويتغنى بها الشعر والادب ولا ريب أنها تراث ثمين يجب أن تحتفظ به الحكومات الوطنية ويستفيد منه المؤرخون والمؤلفون . أما استخراج عجلة الحياة الانسانية الثقيمة التي غاصت في الوحل فلا يمكن بالعلوم الانسانية ولا المعاني الشعرية ولا النكت الأدبية ولا الروايات التاريخية ولا البحوث الفلسفية ولا النظم السياسية ولا يمكن تحويلها من جهة الشر الى الخير وتسيرها على خط الاخلاق الدقيق الا بقوة الدين المتغلغل في الاحشاء الراسخ

في الاذهاء الذي يملك على الانسان مشاعره ويقرر شهواته وكل يعلم كيف غاصت هذه العجلة في القرن السادس المسيحي وأعبا الناس أمرها حتى قطعوا منها الرجاء هنالك جاء محمد ﷺ لا يملك قوة مادية ولا يملك وسائل التعليم والدعاية والطباعة فدفعها بقوة النبوية وقوة الدين الذي جاء به والايمان الذي يدعوا اليه فوثبت من مكانها ولم تزل سائرة والركب الانساني هذه القرون المتطاولة ، ان هذه القوة لا تزال كامنة في هذا الدين الخائد والكتاب المحفوظ وهي على استعداد تام لانقاذ البشر واغاثة الامم اذا أرادت ذلك وطابت به نفوسها .

وطبعا تلك الثروة والقوة أقرب إلى آسيا منها إلى أوروبا والاتفاح من تلك النعمة الجليلة أيسر للامم المبرقية والاسيوية بالنسبة إلى الامم الغربية ثم انها أقرب إلى الامم والحكومات التي تدن بالاسلام منها إلى الامم التي لا تدن به وهي في أحضانها يتلون كتاب الله ويؤمنون بالرسالة واليوم الآخر ويأفزون بكلمة الاسلام ، فلهم في كل حين ان يحكموا هذا الدين في حياتهم ويحلوا به عقد حياتهم التي اعييتهم ويدأوا به أمراضهم التي نهكتهم فاذا لم يفعلوا ذلك وهلكوا كانت كارثة كبيرة وكانت مهزلة لم يشهد التاريخ مثلاً .

نرى الناس كيف يسعون في علاج سقمهم وكيف يرجعون في ذلك على كل طبيب بقطع النظر عن جنسية ووضعية ودينه وعقيدته ويحضرون له كل ما استطاعوا اليه سبيلاً ، فلا تنف في طريقهم العصبية ولا تمنعهم القومية والوطنية عن اتخاذ طرق التداوي واستخدام الاطباء على اختلاف أجناسهم وأوطانهم .

كذلك على قادة الامم المريضة والساهربن عليها أن يعملوا ويجهدوا أنفسهم في التماس دوائها والسعي لشفائها ، فكارثة أمة بأمرها ألجعت من كارثة امرأة أو فرد وان حق الامم المريضة على قادتها وزعمائها أكبر من حقوق المرضى على ممرضيهم وأقاربهم فلا يستغرب اذا تقبوا لذلك في البلاد واتخذوا في الارض نفقاوا في السماء سلماً وغاصوا في البحار يلتمسون لها الدواء ، لكن لا حاجة إلى هذا التفتيش والعناء فالاسلام أقرب اليهم من ذلك وأيسر وهو مستعد دائماً لانقاذهم اذا اتسعت له صدورهم وطرحوا العصبية جانبا والقرآن يخاطب أبناء القرن العشرين كما خاطب أبناء القرن السادس المسيحي قائلا : لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم